جمال الدين الأفغانى ونهضة مصر والشرق

كتب المؤرخ الكبير المرحوم عبد الرحمن الرافعى عن جمال الدين الأفغانى فقال[1]: «إن الأمم الشرقية جمعاء مدينة بنهضتها السياسية والفكرية إلى الزعيم الكبير والفيلسوف الشهير السيد جمال الدين الأفغانى»

«ظل الشرق قرونًا عديدة بعد نهضته الأولى رازحًا تحت نير الجمود الفكرى، والتأخر العلمى، والاستعباد السياسى وبقى فى سبات عميق، إلى أن قيض الله له الحكيم الأفغانى، فنفخ فيه روح اليقظة والحياة وأهاب بالنفوس أن تنهض وتتحرك، وبالعقول أن تستيقظ وبالأمم والجماعات أن تتطلع إلى الحرية.

فكانت رسالته إلى الشرق مبعث نهضته الحديثة..

لقد وصل الأفغانى إلى مصر لأول مرة قادمًا من الهند، وقد بدأت تسرى فى دمائها بعض معالم اليقظة، فمكث فيها نحو أربعين يومًا، اتصل فى أثنائها بعلماء الأزهر وغيرهم، وحدثهم بآرائه.

ثم سافر إلى تركيا عام ١٢٨٧ هـ - ١٨٧٠ م.. وقد مكث هناك مدة قصيرة، ولدت آراؤه فيها بعض المتاعب له، فغادرها إلى مصر مرة ثانية فى المحرم ١٢٨٨ هـ، ٢٢ مارس ١٨٧١ م. وظل فيها حتى أصدر الخديوى توفيق أمرًا بمغادرته مصر، فغادرها فى ٦ رمضان ١٢٩٦ هـ، ٢٤ أغسطس ١٨٧٩ م إلى الهند.

مع أن الخديوى كان شديد التعاطف مع آراء السيد قبل توليه الحكم، حتى كان يعمل هو وشريف باشا لعزل إسماعيل، وتولية توفيق[2].

وكان قد استقبله رياض باشا رئيس وزرائها حين قدم إلى مصر، فأعجب بعلمه وفضله فسهل له الإقامة بها، والتف حوله بعض علماء الأزهر وطلابه،

(١) فى ص ١٤٨، ١٤٩ جـ٢ عصر إسماعيل. وقد ولد الأفغانى فى شهر شعبان عام ١٢٥٤ هـ.
(٢) خاطرات الأفغانى لمحمد باشا المخزومى. ص ٣٩ - ٤١.

وكثير من النابهين، وأخذ يدرس لهم، ويبث فيهم آراءه، وقد أجرت الحكومة عليه راتبًا قدره عشرة جنيهات شهريًا، فكان منزله وقهوة «ماتاتيا» فى العتبة الخضراء، هما المكانين اللذين يلتقى فيهما بمريديه، ويتحدث معهم بما يشاء من علم وآراء، فى السياسة والاجتماع والدين.

وقد فعلت آراؤه فعل السحر فى نفوس الذين يستمعون إليه، يستنهض هممهم للحرية وللتقدم، ولإدراك تعاليم دينهم[١] كما كان لها وقع اللهب فى نفوس الحكام المستبدين، ومن يساندونهم من المستعمرين..

يقول الأستاذ أحمد أمين فى كتابه «زعماء الإصلاح»:

«إن الثمانى سنين (التى قضاها فى مصر)، كانت من خير السنين بركة على مصر، وعلى العالم الإسلامى الشرقى، لأنه فيها كان يدفن فى الأرض بذورًا تتهيأ فى الخفاء للنماء، وتستعد للظهور ثم الازدهار».

«ولقد جرب الأفغانى مثل ذلك فى بلاد شرقية فلم تفلح، كما أفلحت فى مصر»، ولا شك أن هذا يرجع إلى ما كانت عليه مصر حين جاء من حركة نحو الحرية والنهضة..

ولقد كان الأفغانى يتعجل الإصلاح عن طريق الثورة على الحكام[٢]، ولكنه كان ينفخ فى شعوب لم تتأهل تمامًا بعد للثورة التى يريدها هو، وإن كان قد ترك بذرته فى النفوس تفعل فعلها ببطء، أو بتدرج نحو الوصول إلى الغاية التى كان يريدها.. وحين غادر مصر للهند كان قد ترك وراءه تلامذة متأثرين به، وأصبح

---

(١) وقد كان الأفغانى يركز دائمًا لتلاميذه على أنه لا خلاص للمسلمين إلا بالتمسك بحبل الله المتين كما بين القرآن، وأن القرآن هو الدستور المقدس وهو خلاصة أشرف الأديان، وهو يكفل السعادة فى الدارين للمسلمين وقد رفع أسلافنا إلى السماكين ونعى عليهم مجرد تلاوته والتبرك به واتخاذه تعاويذ ومطية للإيمان الكاذبة وزينة قرب الأطفال والعرائس، وحرز للمصارعين. (جمال الدين الأسد أبادى للدكتور عبد المنعم حسنين ص ٧٥ – دار الكتاب اللبنانى ١٩٧٣.

(٢) ويفصح الشيخ محمد عبده فى كلمة له قالها فيما بعد: «أن السيد كان صاحب اقتدار، وقد عرضت عليه حين كنا فى باريس أن نترك السياسة، وأن نذهب إلى مكان بعيد عن مراقبة الحكومات فنعلم ونربى من نختار من التلاميذ على مشربنا، فلا تمضى عشر سنين إلا ويكون عندنا كذا وكذا من التلاميذ، الذين يتبعوننا.. فقال له السيد: إنما أنت مثبط.

لهم دورهم فى الحياة المصرية فيما بعد.

وكان أعظم هؤلاء التلامذة، وأشدهم قربًا إلى قلب الأفغانى هو الإمام الشيخ محمد عبده، فترك مصر وهو يقول: تركت فيها محمد عبده.

الشيخ محمد عبده:

وكان محمد عبده يجل أستاذه ويستمع إليه، لكنه فى قرارة نفسه كان لا يحب الإصلاح عن طريق الثورة، ولما علم بمقدمات ثورة الضباط - ثورة عرابى - لم يوافق عليها، خوفًا من أن تجر على البلاد احتلالا أجنبيًا، وقال لعرابى: «أرى أن الشغب قد يجر على البلاد احتلالا أجنبيًا، يستدعى تسجيل اللعنة بسببه إلى يوم القيامة».

فتبسم عرابى ابتسام الساخط وقال: «أبذل جهدى فى ألا أكون مورد هذه اللعنة، وليس الجند هو الطالب، وإنما مؤيد لطلب أعيان البلاد».

وكان من رأى الشيخ «الاهتمام بالتربية والتعليم ونحمل الحكومة على العدل ما نستطيع».

ولكن الشيخ انحاز فيما بعد إلى الثورة ورجالها، واشترك فى التجهيز لها، حين رأى الخديوى ينحاز إلى إنجلترا وفرنسا ضد بلاده[1].

وكان رأية الأول وطنيًا ورأيه الثانى رأيًا وطنيًا كذلك، ولكل رأى وجهته وظروفه. وهو لم يعدل عن رأيه الأصلى فى ضرورة التربية والتعليم بدلا من الثورة، إلا حين وجد الخديوى يستعين بإنجلترا وفرنسا وينحاز لهما.. فلم يعد الوقت مناسبًا لرأيه الأول، وليس هو بجبان حتى يلوذ بأهداب رأيه الأساسى، فى مثل هذه الظروف، ويتمسك به، لكنه لم يترك رأيه الأول فى ضرورة الإصلاح عن طريق التربية والتعليم لضمان استمرار الإصلاح وثباته...

وهذا هو ما أود أن أسجله عن رأى الشيخ محمد عبده فى النهوض بالبلاد،

---

(١) ارجع لكتاب الإمام محمد عبده للمستشار عبد الحليم الجندى ص ٣٢. وقد ولد الشيخ عبده ١٢٦٥ هـ ١٨٤٩ م وتوفى فى جمادى الأول ١٣٢٣ هـ ١١ يوليو ١٩٠٥.

وتحريرها، وهو الرأى الذى كان يدعو الناس إليه فيما يكتبه فى الصحف، فى ذلك الوقت، وفى مقدمتها «الوقائع المصرية» التى يرأس تحريرها ١٨٨٠م وكان فى العدد ٣٦ فى ٣٠ ديسمبر ١٨٧٦م من الأهرام قد كتب مقالا فى «العلوم الكلامية والدعوة إلى العلوم العصرية»[١]، وذلك قبل أن يتقدم لامتحان شهادة العالمية ١٨٧٧. وسبقه عدة مقالات فى الأهرام فى هذا الاتجاه.

الجمعية الخيرية الإسلامية:

ونراه بعد أن عاد لمصر بعد نفيه عقب الثورة العرابية، يحقق غرضًا له قديمًا دعا إليه منذ ١٨٨٠م وهو إنشاء «جمعية خيرية إسلامية» مع جماعة من خيرة مريديه وتلامذته، ومن خيرة رجال مصر: سعد زغلول وقاسم أمين وحسن عاصم وعلى فخرى وغيرهم ممن انضم إليه، وذلك سنة ١٨٩٢ وكانوا يحبون أن يرأس مجلس إدارتها الأمير حسين كامل، ولكنه أبى وفى الشيخ حياة.

وكان رؤساؤها مؤقتين حتى عام ١٩٠٠، فصار الشيخ رئيسًا وراعيًا لها، حتى توفى فرأسها الأمير.

وكان من أهم مما عملت له الجمعية، إنشاء المدارس لتعليم أبناء البلاد تعليمًا يجمع بين التربية الدينية وبين علوم العصر، لمقاومة مدارس التبشير، التى أنشأها المبشرون، مع العناية باللغة العربية، وتصحيح عيوب التعليم، الذى فرضه الإنجليز فى مدارس الحكومة، فكان فى مناهجها القرآن والحديث والسيرة والأدب. كما كانوا يؤدون الصلاة عند أذان الظهر، وكان التعليم فيها بالمجان، مع حوافز كثيرة أدبية ومالية لحفظ دروس الدين واللغة[٢] وذلك كله بجوار ما هدفت

---

(١) المصدر السابق ص ٢١.

(٢) ص ٦٦ المصدر السابق.. وعلى غرار هذا اتجه مصطفى كامل حين آلت إليه المدرسة التى سماها منشئوها باسمه، ثم بعد شهور تركوها له، وقد نقل مقرها إلى سراى «السيد أحمد القصبى» بشارع أمير الجيوش البرانى بقسم الجمالية، وجعل شقيقه «على» يديرها، وقد كتب بيان نشر فى جريدة المؤيد فى حينه مارس عام ١٨٩٩ جاء فيه: «وإنى أتشرف اليوم بإعلان الجمهور أن التعليم فى هذه المدرسة مقرون بالتربية، لأنى أعتقد أن التعليم بلا تربية عديم الفائدة.. وأقصد بالتربية التربية الإسلامية المحضة، لأن أساس التربية الدين وكل أمة بتربى أبناؤها على غير قواعد الدين تكون عرضة للدمار.. وقد عولت=

إليه من مساعدة الفقراء والمحتاجين. وعلى هذه الصورة العملية وجدنا الإمام محمد عبده مع مريديه يرسمون المنهج السليم المناسب، أو الضرورى للتعليم فى بلد إسلامية كمصر.. يجمع بين الأصالة والمعاصرة.. ويتحقق له وعلى يديه وأيدى إخوانه وتلامذته، ما كان يعمل له من قبل، ويدعو إليه..

وقد نشطت الجمعية فى إنشاء المدارس فى كثير من مدن مصر، حتى كانت مدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية هى المدرسة الوحيدة فى دسوق بجانب المعهد الذى بها الذى انتسبت إليه سنة ١٩٢٦م.

وقد آلت مدارسها إلى وزارة المعارف فى الثلاثينيات، وأقامت مستشفاها الكبير بالعجوزة، ولا تزال حتى الآن تقوم بأغراضها الأخرى، وكلما ذكرها إنسان بخير لآثارها الكثيرة، ذكر صاحب الفكرة فى تأسيسها، هو والذين معه من النابهين والعظماء من رجال مصر، لتقوم وتؤدى رسالتها.

وهم الإمام الشيخ محمد عبده، وحسن عاصم، قاسم أمين، وسعد زغلول، وعلى فخرى، وإبراهيم الهلباوى وغيرهم، ممن قامت الجمعية على أكتافهم.

وهذا النمط من التعليم الذى قامت به وأشرفت عليه الجمعية الخيرية الإسلامية فى مدارسها الكثيرة، هو النمط الأصيل المناسب لمصر والذى كان من الضرورى - كما قلت - أن يصطبغ به التعليم الحديث منذ قام، ويستمر على ذلك حفاظًا على ثقافتنا وأصالتنا كبلد إسلامى عربى.. يحرص فى تعليمه على اقتباس المفيد النافع من علوم الغرب وصناعاته، مع الحفاظ على مقوماته الأصيلة: من دين ولغة وتقاليد وولاء للوطن، حتى لا يمسخ الجديد الوافد الملامح الأصيلة، فى شعب يعتز بأصالته...

وتواصل الجمعية ورجالها رسالتهم التعليمية، فتشرع فى إنشاء جامعة أهلية، وتدعو الأغنياء للتبرع لها، وتولى حسن عاصم وسعد زغلول وقاسم أمين أمانة

= على جعل الغرض الأول من المدرسة تربية الملكة الإسلامية للناشئين وتمكين محبة الوطن والإتحاد والإئتلاف من نفوسهم وتقديم اللغة العربية على كل لغة مع ترك الحرية للآباء فى إختيار الإنجليزية أو الفرنسية.. إلخ..».

من كتاب مصطفى كامل بقلم أخيه على فهمى كامل ص٤١٨ جـ١ الطبعة الثانية ١٣٤٤ هـ، ١٩٢٦ م.

لجنة إنشاء هذه الجامعة، وأوفدت أولى بعثاتها إلى أوربا وفيها: محمود عزمى، ومنصور فهمى، وتوفيق السامى، وسيد كامل، وسبعة آخرين ليعودوا مدرسين فى هذه الجامعة... وظلت جامعة أهلية حتى احتضنتها الحكومة ١٩٢٥م.

وكان المجتمع المصرى كله بزعمائه[١] وقادته فى أواخر القرن التاسع عشر، يتطلع إلى إيجاد تعليم عالٍ فى مصر، يلحق به المتخرجون فى المدارس الثانوية، بدلا من أن يتجهوا فى التعليم العالى إلى أوربا، وليظل الطالب متصلا بوسطه وشعبه وبيئته، حتى يتخرج، فلا يصاب بعوامل غربية تهز شخصيته...

وكما قلنا من قبل، كان من الضرورى إنشاء المدارس لتدرس فيها العلوم الحديثة المقتبسة من الغرب، حتى تنهض البلاد. ومعروف أن العلوم والصناعات وأصولها لا وطن لها، ولا تتكون منها ثقافة أمة، وليست حكرًا على أمة، فالعلم لا وطن له، وهو مهما علا بنيانه، قد شاركت فى إعلائه كل الأمم من قديم الزمان، وأضافت لبنة إلى لبناته، فهو غير ثقافة الأمة.

والإسلام يدعو إلى العلم واكتسابه من أى طريق، وعلى يد أى معلم «فالحكمة ضالة المؤمن»، ولقد كانت سقطة كبيرة من العالم الإسلامى وعلماء الدين فيه، فى هذه القرون المتأخرة، أن عزف عن العلوم والصناعات وقصر علمه على علوم الدين واللغة، فهى وإن حافظت على الأصالة وتربية الروح، لا تقيم الحياة المادية القوية التى لابد منها لكل أمة، والمسلمون فى المقدمة، ليحموا ثقافتهم وبلادهم.

ولقد كانت سقطة أكبر حين وقف علماء الأزهر فى وجه هذه العلوم، وحاربوا فى أول الأمر تدريسها فى الأزهر، بجانب علوم الدين واللغة، ونظروا - بضيق أفق - إلى المدارس التى تعلمها نظرة استخفاف.

والذى يمد نظره إلى العلماء المسلمين خارج مصر، يجدهم يقفون كذلك من

---

(١) عندما عاد الزعيم الوطنى مصطفى كامل من أوربا بعد جهاده هناك فى فرنسا ضد المستعمر، جمع الشعب أموالا للاحتفال به عند عودته، ولكن مصطفى كامل وجه هذه الأموال للمساهمة فى إنشاء جامعة أهلية، تتولى التعليم العالى فى البلاد.

هذه العلوم المقتبسة من الغرب، نظرة علماء الأزهر، وربما أشد منهم وأكثر حدة... وكانت لهم جميعًا وجهة نظر قد نحترمها، ولكننا نجد بها قصورًا فى الأفق... فقد كانوا يخشون الاقتباس من الغرب - العدو اللدود للمسلمين - فى أى شىء خوفًا على دينهم، وصلاح مجتمعهم، ولم يفرقوا بين ما هو صالح وما هو فاسد. بل سد الأبواب أمام كل ريح يأتى من الغرب ولو كان منعشًا، ولعلهم الذين طبقوا المثل الشعبى المعروف المتداول: «لا يأتى من الغرب شىء يسر القلب» أو ينطبق على حالتهم...

ولقد رأيت العلماء فى الهند يقاطعون، ويدعون الشعب المسلم إلى مقاطعة المدارس التى أنشأها الإنجليز حين تمكنوا من الهند بواسطة «الشركة الشرقية الهندية الإنجليزية» أولا، ثم بعد ما ضموا الهند لمستعمرات التاج سنة ١٨٥٨م زادت هذه المخاوف على دينهم وتقاليدهم الإسلامية، بل وجدناهم يحاربون فى حياتهم، أى مظهر غريب على الهند، أتى به الإنجليز، ولو فى اللباس أو طريقة الأكل..

وينظرون نظرة اشتباه فى أى إنسان يلبس قميصًا بياقة على نسق الإنجليز أو يحلق مثل حلاقتهم، أو يلبس حذاءً برباط كما يلبسون... إلخ. ويرون فى ذلك تشبيهًا بهم «ومن تشبه بقوم فهو منهم».

وكان الإنجليز هم الذين قضوا على الحكم الإسلامى والإمبراطور المسلم فى الهند.. فهم ألد أعداء الإسلام والمسلمين.. ولذلك تأخر المسلمون كثيرًا عن الهندوس فى هذا التعليم الحديث، كما تأخروا فى كل قطر دخله المستعمرون فى مختلف القارات، على حين تفوق عليهم فى هذا المضمار، أبناء الأديان الأخرى، الذين لم يجدوا حساسية فى أن يتعلموا ما يفد من الغرب عليهم، فى مدارس يقيمها المستعمرون.

ولذلك نجد فى بعض الأمم الإسلامية فى أفريقيا وغيرها، دولا يتولى قيادتها مسيحيون سواء فى رئاسة الحكومة أو فى الأحزاب، مع أن الأغلبية مسلمة، لأن هؤلاء سبقوا المسلمين فى التعليم الحديث، الذى أتاح لهم الحصول على الشهادات العليا، بمعاونة المستعمرين طبعًا، وحسب تخطيطهم فرجعوا إلى بلادهم، وتولوا

مناصبها الكبيرة، وقادوا شعوبها إلى الاستقلال. فعلماء الدين فى كل قطر إسلامى نظروا إلى التعليم الحديث، نظرة كلها شك وريبة، فوق ما رسخ فى أذهانهم من أن العلم هو علم الدين واللغة.

وكان علماء الأزهر عندنا كهؤلاء، أو فى طليعتهم كما قلنا، وإذا كانت هذه النظرة قد أتاحت شيئًا من الحفاظ على الأصالة فى ناحية، فقد دفعت الكثرة إلى الارتماء فى أحضان التيار الآخر، والاستسلام له، والنفور من المحافظين وآرائهم، وكان الضرر أكثر من النفع بلا شك، كما أنها أخرتنا فى ركب التقدم كثيرًا، مما نعانى آثاره الآن.. وإلا فماذا يمكن أن نتصوره لو سارت الأمة كلها وراء هؤلاء المحافظين المتشددين المتشككين فى نظرتهم للعلوم الحديثة؟

ومما يدعو للدهشة أن هذه العلوم التى اعتبرها هؤلاء حديثة، وحاربوها، أو نظروا إليها نظرة سيئة، هى علوم عرفها المسلمون من قبل، وكانوا هم أصحاب بعضها، وكانت تدرس فى المدارس الإسلامية، وقد اقتبسها الغرب من المسلمين، وأرسلت دوله بعثات منها إلى الأندلس وغيرها لتعلمها[١].

فكان المسلمون يتقنون هذه العلوم مع إتقانهم أيضًا لعلوم الدين واللغة، وكان علماء الرياضة والطب والفلك، علماء كذلك فى علوم الدين واللغة، ولو أن العلماء قبلوا هذه العلوم فى الأزهر، واستراحوا لتعليمها فى المدارس من أول الأمر، وشجعوه، واستغلوا نفوذهم فى ذلك الوقت للعناية بعلوم الدين واللغة فى هذه المدارس، بجوار العلوم المقتبسة من الغرب، ورحبوا بكل اقتباس مفيد، لا يخدش ديننا، ولا ثقافتنا، لتغير مجرى هذه المدارس ومناهجها، وتغيرت أو استقامت ثقافة متخرجيها، ولم تكن هذه الحالة التى نشكو منها الآن مر الشكوى.

ولو أن الذين أنشئوا هذا التعليم الحديث، وتابعوه، وشجعوه، وعملوا على نشره فى البلاد، راعوا مع اقتباسهم من الغرب أصالتهم، وثقافتهم القائمة أساسًا على الدين واللغة وأعطوا علوم الدين واللغة القدر المناسب من عنايتهم فى هذه

(١) راجع فى ذلك كتاب «بين الديانات والحضارات» للأستاذ طه المدور، وما ذكرناه عنه فى الهامش، والكتب التى تحدثت عن أثر المسلمين فى حضارة الغرب ونهضته.

المدارس. لما كان هذا الانفصال الشبكى، فى المدارس والجامعات، بين مناهجها الحديثة، وبين أصالتنا الثقافية، كما هو الحال الآن، ولما رأينا ما يشبه الانفصام الثقافى بين المتخرجين فى هذه المدارس والجامعات، ولما وجدنا المثقفين فينا ينشطرون شطرين، ويقفون فى جبهتين، يتبادلون الشكوك والاتهامات، وترتبك مسيرتنا وتتعطل...

ونحن هنا لا نحمل رجالنا الذين عنوا بنشر التعليم الحديث، وحدهم مسئولية هذا الانفصال أو الانفصام، لأنه أيضًا كان خطة المستعمر الإنجليزى منذ احتل مصر ١٨٨٢ م، وأمسك بيده مقادير الأمور فيها، وكان من حسن حظه أنه وجد من رجال مصر من يرى رأيه فى هذه الناحية، ويساعده باقتناع فى الوصول إليها، حتى رأينا من ينادى آخر الأمر بأن نأخذ من الغرب خيره وشره، حلوه ومره، ما يستحسن فيه وما يستقبح.

وبذلك لا نرى لثقافتنا الأصيلة الأثر القوى على مجرى حياتنا، بل أصيبت بالعجز والهزال نتيجة العزل أو الانعزال... كما نرى أثر ذلك فى حياتنا الآن... برغم ما قام فى وجه هذه الموجة العارمة، من مقاومة رجال الأزهر، ومن المدركين لحقائق الأمور، ممن تثقفوا خارج الأزهر... فهؤلاء كانوا خارج الملعب الذى يتحكم فيه «الحكم» بصفارته، برغم الصياح الذى ينطلق ممن هم خارجه من الجماهير...

وإن كان من المحتمل أن يكون للمتصايحين خارج الملعب شىء من التأثير على الحكم، فيداري أحيانًا فى تنفيذ ما فى نفسه. وربما يرضى للمتصايحين عليه بموقف يتخذه نفاقًا، ليستمر بعد ذلك فى خطته، ويستمر اللعب كما يريد.

والإنجليز والغربيون عمومًا - بحكم وضعهم وطبيعتهم - أعداء تاريخيون للإسلام والمسلمين، ولهم ثأرهم عند المسلمين، ولهم عقيدتهم فى أنه مادام المسلمون متمسكين بعقيدتهم ودينهم وقرآنهم، فلن يستطيعوا التغلب عليهم، والسيطرة على بلادهم وخيراتها... ولذلك ينتهزون الفرص للعمل على إضعاف الروح الدينية، فى نفوس المسلمين، والفصل بينهم وبين تغلغل العقيدة فيهم، وكذلك اللغة العربية...

وقد عملوا لذلك فى أزمان متعاقبة، وبطرق متعددة، وهم غير مسيطرين على بلادنا، فماذا يكون حالهم، لو تمكنوا من ذلك عن قريب، وكان الأمر فى أيديهم، حين يستعمرون البلاد، ويسيطرون على مجرى الأمور فيها.

ولقد كانوا قبل احتلالهم لنا، يتدخلون لتنفيذ أغراضهم لدى حكام مصر، منذ هزموا الأسطول المصرى فى البحر الأبيض، وأجبروا محمد على - المنهزم - على توقيع معاهدة لندن التى شلت حركته وجعلته هو وأسرته من بعده تحت رحمتهم... وجاءت الديون التى اقترضها الخديوى محمد سعيد، ومن بعده إسماعيل من الغرب - إنجلترا وغيرها - فبدءوا يتداخلون فى أمور مصر، ويملون إرادتهم على حاكمها، باسم المحافظة على الدين، فماذا يكون عليه الأمر حين ينضم لهذا احتلالهم السافر لمصر بجيوشهم، ويصبح مندوبهم فيها هو الحاكم بأمره؟

عندما افتتح شريف باشا رئيس الوزراء مجلس النواب فى ٢٦/١٢/١٨٨١ وطرح عليه مشروع الدستور، اعترض الإنجليز والفرنسيون على حق المجلس فى مراقبة الميزانية، وبدأ شريف يفاوضهم، لكن الضباط الثائرين لم يرتضوا منه هذا الموقف، فاستقال فى ٢/٢/١٨٨٢، ليتولى البارودى مكانه، وأحمد عرابى وزيرًا للحربية، وصدر الدستور كاملا فى ٧/٢/١٨٨٢ وأقيمت الاحتفالات بهذه المناسبة. برغم أنف الإنجليز والفرنسيين ونفوذهم عند الخديوى.

ولم يكن ذلك بالأمر السهل الذى يمر عليهم، فبدأ التآمر لضرب هذه الحركة الوطنية فكان بعد ذلك ضرب الأسطول البريطانى للإسكندرية[1] واحتلالها فى ١١، ١٢ يوليو سنة ١٨٨٢، ثم كانت مواجهة مصر لهم حربيًا بقيادة أحمد عرابى وزملائه فانتصر عليهم فى الإسكندرية وكفر الدوار، فالتفوا من الشرق، ونزلت جيوشهم من قناة السويس يتآمر مع دليسبس، وكانت هزيمة عرابى التى شارك فى صنعها أحد الضباط المصريين الخونة، وخيانة الخديوى، وانضمامه للإنجليز من أول الأمر كانت هذه مقدمات مكشوفة لإحتلال مصر... فماذا ينتظر منهم بعد أن وقع الصيد فى أيديهم؟.

---

(١) الثورة العرابية لعبد الرحمن الرافعى الطبعة الثانية ١٩٤٩م، ص ٣٤٤ وما بعدها.

وقد خرجوا من مصر منهزمين بعد موقعة رشيد، قبل ذلك بخمس وسبعين سنة، فلم ينتظروا دقيقة واحدة، بل سارعوا بدخول القاهرة، واحتلال مواقع الجيش المصرى فيها، والاستيلاء على مخازن تموينه، وقاموا بتسريحه، والاستيلاء على كل أسلحته وبدءوا يحكمون قبضتهم على كل شىء فى البلاد.. وكل من يشتم منه رائحة الميل إلى المصالح المصرية، كانوا يتهمونه بأنه «عرابى النزعة»، والنتيجة معروفة.

ولقد وعدوا مصر والعالم بأنهم سيغادرون مصر بعد أيام، ويتركونها لأهلها، وكان هذا الوعد من وعودهم الدخانية التى تبددها الريح..

لقد صرح وزير خارجيتهم اللورد روزنبرى بعد عشر سنوات من الاحتلال، بأنه مستحيل الرجوع حالاً إلى بلدهم، بعد ما قدموه من تضحيات وأعمال لصالح أوربا كلها، إذ أن من الواجب على بريطانيا أن تهتم أولاً وقبل كل شىء بالمصالح الأوربية فى مصر، وختم تصريحه هذا بقوله: «إنه لا يجوز مطلقًا إفلات مصر من الرقابة الأوربية التى تستدعى الحال إظهارها بوسائل أشد وأصعب مما يحدث الآن».

ويعلق الأستاذ محمد صبيح على هذا فيقول:[1] «وإذن فلا مواربة ولا خفاء، إنجلترا تحكم مصر لصالح أوربا، والتمدن والرقى.. تحكمها حكمًا صليبيًّا باسم هذه القارة الشمالية دون أن ترفع راية الصليب».

فماذا ينتظر للإسلام وثقافته ولغته على يد هؤلاء الصليبيين الجدد؟

ويتلاقى الغزو والاستغزاء:

نعم... وتنهال على ثقافتنا وأصالتنا وولائنا لديننا ووطننا أسلحة الغزو والاستغزاء من الخارج والداخل.

ولو كان همًّا واحدًا لاحتملته.. ولكنه هم وثان وثالث.

ورابع أيضًا.. جبهات أربعة، كل جبهة من ناحيتها وبأسلحتها، توجه

(١) ص ١٩٧ وما بعدها من كتابه «أيام وأيام» سبق ذكره..

الضربات إلى ديننا وثقافتنا الإسلامية العربية، لتنتزعنا من أحضان تاريخنا، وتمسخنا.

* جبهة المبشرين تغزونا بأسلحة المدارس والإعانات والمؤسسات الطبية وغيرها.
* جبهة المستشرقين، طلائع الاستعمار ومعاونوه، تغزونا بما يبثونه فى كتبهم باسم البحث العلمى، من سموم فى جسم الإسلام والعروبة والوطنية، وبما يقومون به ويقدمونه للمستعمرين من خدمات تسهل عليهم استعمار البلاد[١].
* جبهة المستعمرين المكشوفة، تغزونا بأسلحتها وتواجهنا بسلطتها، وتقضى فى أمرنا بما تشاء هى وتمليه عليها روحها الصليبية، ومصالحها الاستعمارية...
* وجبهة منا داخلية، عملت من حيث تدرى أو لا تدرى، على تسهيل مهمة هؤلاء الغزاة، وشاركتهم فى صرفنا عن أصولنا وجذورنا، وفى غسل أمخاخنا من كل ما يتصل بماضينا وأمجادنا، وتوجيه قبلتنا نحو الغرب أو الشرق نقتبس منه خيره وشره، حلوه ومره، ما يستحب منه وما يستكره، كما عبر أحد رجالنا الكبار المستغربين المعتدلين.

وإذا كان للغزاة الغربيين بجبهاتهم المتعددة، أسلحتهم المتنوعة، ووسائلهم القوية، فى توجيه ضرباتهم إلينا، وإلى ثقافتنا ومعنوياتنا..

فقد كان «للمستغزين» المستغربين منا أسلحتهم أيضًا، التى أدوا، ولا يزالون يؤدون بها مهمتهم فى مهارة، وباسم الوطن وإصلاحه وتقدمه!! ومن هنا كان خطرهم أشد..

---

(١) جاء فى كتاب الثورة العرابية للرافعى (سبق ذكره) ص ٣٢٩ وهو يتحدث عن تدابير الإنجليز لاحتلال مصر سنة ١٨٨٢: «عهدت وزارة الحربية البريطانية إلى المستشرق الأستاذ بالمر Palmer بالمجىء إلى مصر، وارتياد صحراء سيناء، لرشوة القبائل البدوية بين قناة السويس وغزة، قبل نشوب الحرب مع مصر، وقد حضر وقابله المسيو جون نينيه فى الإسكندرية عرضًا فقال له الأستاذ بالمر: أنصحك بمغادرة القطر المصرى لأن الإسكندرية ستضرب بالقنابل عما قريب، وستكون عرضة لأن يفتك بك الأهلون، وقد قام الأستاذ بالمر بمهمته، ولكن قتله البدو، هو وصحبه، ثم حوكم قتلتهم عقب الاحتلال، فحكم عليهم بالإعدام».

لقد أمسك الذين استكملوا دراستهم فى الغرب وعادوا، أمسكوا وتلامذتهم الذين ربوهم على الإيمان بكل شىء فى الغرب، أمسكوا بزمام الأمور فينا..

وهم قبل أن يذهبوا، أو يدرسوا على يد هؤلاء هنا، لم نحصنهم بدراسة إسلامية وطنية، ولم نريهم الولاء لدينهم وثقافتهم.. فوقعوا بسهولة فى مصيدة الغربيين والمستغربين.

لم نحصنهم بثقافة الإسلام، ولم نبصرهم بحقائقه ومبادئه، ونظرته إلى الحياة، فنظروا إليه من خلال هذا وذاك، هنا أو هناك، ومن خلال نظرة بعض علماء الدين إلى الحياة وقضاياها ومشكلاتها.. وجمود بعضهم على أفكار لا هى من الإسلام ولا هى من الحياة.. فوقعوا فريسة سهلة لكل من يصطادهم، وهمهم أن الحياة الصحيحة والتقدم فيها، فى أن يحذوا حذو الغرب فى كل شىء بصرف النظر عن الدين.

وكان الذين حكمونا، وتولوا الأجهزة التنفيذية والأجهزة المؤثرة فى الشعب، غالبًا من هذا الطراز (المستغرب)، العاشق لكل شىء فى الغرب، المعتقد فى «ولايته» وفى «سره الباتع» والمندفع وراء «الشيخ البعيد» «والشيخ البعيد سره باتع»!! له كرامات ظاهرة وملموسة، فينفذ آراءه وتوجيهاته ويدعو الناس لكى يكونوا جميعًا من مريديه لينصلح حالهم..

وهذا المستغرب منا قد يكون حسب النية، فهو يريد النهوض ببلاده، ولا يرى النهضة بها إلا عن هذا الطريق الذى عرفه هناك، ولكن غاب عنه أن الطريق الذى عرفه هناك فيه، وفيه، فيه الخير وفيه الشر، لكنه لم يميز..

ففيه فعلا من وسائل النهوض والقوة، ما نهض به، وكون قوته، وحقق له السيادة على الضعفاء مثلنا الذين لم يأخذوا بهذه الوسائل. من العلوم وأصول الصناعات والمعاملات.. إلخ.

وهذا شىء لا نزاع بيننا على ضرورة معرفته، واقتباسه، والاستفادة منه، ما دمنا نجهله وليتهم ركزوا على هذا، فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها، كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم..

والمؤمن الذى عرف ربه ودان بالإسلام من الضرورى أن يكون مفتوح العقل والقلب على كل ما فى الوجود، وأن يكون أسبق الناس لمعرفة أسراره، واستخراج مكنوناته واستغلال خيراته، ليكون سيدًا متفوقًا فى هذه الحياة، بعلمه وأخلاقه.

لكن هذا شىء، ونزعة الغرب إلى عزل الدين عن الحياة التى يخططها، ويخطط لها، والاعتماد على عقله وعاطفته ومصالحه وشهواته دون الاستنارة بهدى ربه وتوجيه دينه، والالتزام بذلك فى حياته، شىء آخر يخالف طبيعة ديننا وتنظيمه لسلوكنا.

فتنظيم السلوك فى الإسلام، ومراعاة الإنسان لربه فيه، قبل مراعاته لشهواته ومصالحه الخاصة، هو الجزء العملى للدين، يجوار الجزء العقدى، ولا يتم دين المرء وإخلاصه لربه إلا بكلا الجزأين، ولذلك يذكر الله فى كتابه الكريم العمل مع الإيمان دائمًا فى تصوير المؤمن المتكامل ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية﴾[1].

﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليمًا﴾[2].

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ذروة سنام الإسلام الجهاد، وأدناه إماطة الأذى عن الطريق».

«ومن أمسى كالا من عمل يده، أمسى مغفورا له».

فعزل الإسلام عن تنظيم الحياة، إهدار له، وأكبر جناية يرتكبها المسلم فى حق دينه، وفى حق نفسه وأمته.

وفصل الدين وتعاليمه عن الدولة وتنظيماتها وأهدافها، أفظع تشويه يقوم به المسلم تجاه دينه، وأمته، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه.

---

(١) سورة البينة ٧.

(٢) سورة النساء ٦٥.

والذين فصلوا الدين عن الدولة فى الغرب، فعلوا ذلك لظروف عندهم، اضطرتهم إلى ذلك.. وهذه الظروف لم توجد ولن توجد عندنا.. فالنقل عن الغرب «نقل مسطرة» معناه أننا أطفال صغار حتى ولو كنا رجالاً «بشنبات»، أطفال كالولد الصغير يقلد أخته الأكبر عنه، فيتحدث عن نفسه بضمير المؤنث، وهو لا يدرى.. فى حين يشفق عليه من حوله. ويقولون متى يكبر الولد ويعرف نفسه؟ وحين يكبر ويشعر بنفسه ونذكره بهذا يخجل ويتوارى..

ولا نريد لأنفسنا، ولا لقادة الرأى فينا مثل هذه الطفولة اللاوعية، ولا بد أن نكبر حقيقة ونعرف أنفسنا.. ونميز بين المناسب وغير المناسب، بين الصحيح وبين غير الصحيح..

ولكن الذين بهرتهم أضواء التقدم فى الغرب، حين خرجوا من ظلام حياتهم وتأخرها، ساروا وراءه بدون فرامل، ونقلوا تأثيرهم إلينا، وإلى الأجيال التى أشرفوا على تربيتها وتوجيهها.. فتلاقوا بذلك مع الجهات الأخرى التى خططت لغزونا وتغريبنا، وسهلوا لهم مهمتهم، وفتحوا لهم من الداخل حصوننا.. أو قل: عملوا على هدمها، ليدخل الغزاة إلى نفوسنا، وإلى مجتمعنا، غازين منتصرين «وياما جاب الغراب لأمه»[١].

واجتمع بذلك على أمتنا وثقافتنا الغزاة والمستغزون.

وهذا شر ما تصاب به أمة فى نفسها: أن يقوم بنوها بتصويب السلاح إلى صدرها كأعدائها، وأدهى من ذلك وأعظم شرًّا، أن يفعل الأبناء ذلك وهم لا يدرون عاقبة ما يفعلون، بل ربما اعتقدوا أنهم يقدمون خدمة لأمتهم ووطنهم..

وتلاحظ ذلك فى اغتباط أصحاب الهجمات الغازية الأخرى.. وهم يرون أبناء الوطن أنفسهم يأخذون على عاتقهم القيام بمهمتهم.. وهم أنفذ فى تحقيق الهدف من المهاجمين الغزاة من الخارج.. وهكذا..

ما يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه

---

(١) مثل شعبى يضرب فيما يجلبه الأبناء لوالديهم من مشاكل ورزايا..

أجراس الإنذار:

وقد فعل بنا أبناؤنا ورجالنا هذا كله برغم الأصوات المحذرة التى انطلقت من المصلحين والفاهمين، المشفقين على هذه الأمة أن تضل طريقها، وتلقى حتفها، وتتحول إلى مسخ جديد، لا هو بالشرقى ولا هو بالغربى، «وترقص على السلم»، كما يقال..

فأصوات هؤلاء المصلحين المسلمين ضاعت وسط الزحام والتهافت على الغرب، وتلقف بضاعته الثمينة والغثة، ويدفعون فيها أغلى ما عندهم..

ضاعت عندهم هذه الأصوات لأنهم فهموا أو لقنوا: أن هؤلاء الدعاة رجعيون ومتأخرون لا يريدون لنا تقدمًا، وإنما يريدون أن نقف، ونعيش كما كنا، متأخرين، حين يريدون أن يحكموا الدين وتعاليمه فى حياتنا. فما للدين والحياة ؟!!.

هكذا فهموا، أو أفهموا، ولعل عذرهم - كما قلنا - أنهم لم يحصنوا فى صغرهم بالمصل الواقى لهم من الأمراض المعدية الخطرة..

قبل أن ندفع بهم إلى أوساط معدية أو معادية، فانتقلت إليهم العدوى، بسهولة، ونقلوها هم بعد ذلك، إلى المخالطين لهم، والملتفين حولهم، والمتأثرين المنبهرين بهم..

فاعتبروا كل دعوة للحفاظ على أصالتنا تأخرًا وجمودًا، ودعوة إلى ركوب الجمال[1] بدل الطائرات !!

---

(١) أذكر أنه فى ١٩٥٩ كتب رئيس تحرير الجمهورية، وكان أديبًا شاعرًا يعلق على ما دعوت إليه فى صفحتى التى كنت أكتبها أسبوعيًّا تحت عنوان «دين وثقافة» من ضرورة الالتزام بآداب الدين فى حياتنا العامة، وقال فيما قال: «هل يريد الذين يدعوننا إلى ذلك، أن نرجع القهقرى، ونركب الجمال، بدلا من الطائرات؟ إن من نتائج ما يدعون إليه، أن يكف السياح عن المجئ لمصر لأنهم لا يجدون فيها ما يتمتعون به.. إلخ» وقد رددت عليه فى صفحتى، وكان عنوان ردى «تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها»، وزرته فى مكتبه، عقب نشر مقالى، فقال حين رآنى - وكان أديبًا ظريفًا واسع الصدر: كنت وأنا أكتب كلمتى أتوقع أنك سترد علىّ، عليه رحمة الله..

جاهلين أن الإسلام يدينهم حين تأخروا عن غيرهم فى مجالات الحياة، ولا يرضى عن تأخرهم هذا، حتى قال قائل منهم – مع أنه رجل عظيم فى فكره وفى مواقفه: ليس من المعقول أن ننفذ الآن حكمًا نزل به القرآن من ١٤٠٠ سنة !!

وكأن علم الله كعلمنا، قاصر على أن يعلم المستقبل وما يناسبه.. فكان حكمه غير مناسب.. وقال آخر – وهو مثله من كبار رجال القانون بيننا – كيف أطبق حكمًا للقرآن لا يتفق ومقتضيات العصر؟.

ومقتضيات العصر عندهما[١] هى مقتضيات الحياة العصرية الغربية التى تشبعا بها، هما وأمثالهما الكثيرون منذ الصغر، هى الحياة العصرية الغربية التى اباح برلمانها اللواط بقانون أصدره.. لأنه من حريات الإنسان !!.

وهذه الحياة العصرية لها اعتبارها، أما القرآن وأحكامه فليس له هذا الاعتبار!! وإلى هذا الحد يبلغ الغزو الثقافى الغربى فى النفوس، حتى فى نفوس الكبار، كبار السن ورجال القانون، ممن لهم وزنهم فى حياتنا..

فما كان هذا ليصدر من مسلم، لولا أنه طبع منذ الصغر على الإعجاب بالغرب، وبكل ما فيه، بصرف النظر عما يقتضيه منه دينه وعقيدته، ولولا أنه ربى منذ الصغر على التوجه إلى الغرب يستلهمه، لا التوجه إلى الكعبة يربط بها وجهه وقلبه وتصرفاته..

إن الدين ارتباط والتزام كلّى، فمن رفض جزئية فيه، فك هذا الالتزام وحل هذا الارتباط، وهذا أمر طبيعى، فالماكينة الضخمة لا تدور، إذا فقدت ولو مسمارًا صغيرًا فيها، والمدينة التى تغمرها الأضواء، تنقلب إلى ظلام دامس، لو انقطعت شعرة «السلك» التى توصل الكهرباء فى «الفيوز».

فالاستهانة بالجزء ولو صغيرًا، وعدم الاعتراف والعناية به، يوقف الماكينات

---

(١) وقد توليت الرد على الأول فى مجلة «آخر ساعة» التى نشرت حديثه، واستمر الحوار بيننا ستة أعداد فى ستة أسابيع من أواخر مارس حتى ٣ مايو ١٩٨٤، أما الثانى فقد رددت عليه فى جريدة الجمهورية فى ١١ مايو ١٩٨٤.

عن الدوران، والطائرة عن الطيران، ويحول الأضواء إلى ظلام، وينزع من قلب المسلم حقيقة الإيمان. «ومعظم النار من مستصغر الشرر».

ولكن هل يدرك هؤلاء المندفعون نحو ثقافة الغرب، المهملون لثقافتهم مثل هذا؟

إننى لا أحمل الأفراد الذين انبهروا بحضارة الغرب، وانكبوا عليها يغترفون من بحرها الماء الصافى، والماء العكر، والماء العذب، والماء المالح، لا أحملهم وحدهم وزر هذا الاندفاع، فقد هيأه لهم حكامهم، ومن تولى مسئولية التعليم.

وكان هؤلاء الحكام فى مقدمة المندفعين نحو الغرب دون احتياط، ولعلهم لم يكن يعنيهم ما نعنيه، وما ندركه، من واجب تجاه حضارتنا وثقافتنا، ولم يكونوا يشعرون كما نشعر وكما شعر كثير ممن عاصروهم، وعاصروا هذه الفترة منذ بدأت حتى الآن بالخوف على ثقافتنا من هذا الزحف الغربى..

يقول المرحوم الدكتور عبد الرزاق السنهورى[١]:

«وقد وافى إسماعيل أمته، وهى فى مفترق الطرق تتنازعها حضارتان: حضارتها الإسلامية القديمة، تنزع إليها بتقاليدها، والحضارة الغربية الحديثة، تندفع إليها بحكم التجديد، فلم يتردد إسماعيل، ومال إلى الحضارة الغربية، وأخذ يعمل ويعمل، حتى جعل مصر جزءًا من أوربا».. وهكذا.

«وكان محمد على قبل إسماعيل، قد دفع بمصر فى طريق الحضارة الغربية، ولكن مصر لم تكن قد نضجت بعد لهذه الحضارة، فقبلتها على حذر، وأخذت منها بقدر، ثم كان عهد إسماعيل، فتوغلت مصر فى هذا الطريق، وقطعت فيه أشواطًا بعيدة المدى. وقد يكون عصر إسماعيل، هو العصر الذى هيأ لمصر الأساس الذى بنت عليه كل ما أخذته من الغرب من مدنية جديدة، فمن معاهد للتعليم، ومن جيوش وأساطيل، ومن نظم نيابية وإدارية.. إلخ ثم يقول بعد ذلك:

---

(١) فى افتتاحيته لكتاب «إسماعيل بمناسبة مرور خمسين عامًا على وفاته» وقد جمع هذا الكتاب ما قيل من كبار رجال مصر بهذه المناسبة خلال أسبوع الاحتفال بها من ٢ مارس ١٩٤٥ إلى ٨ منه وقد طبعته دار الكتب ١٩٤٥. وكان الدكتور السنهورى وقتها وزيرًا للمعارف..

«وليس هناك من شك فى أن البلاد كسبت كثيرًا من هذه الحضارة القوية فى الناحيتين المادية والمعنوية، ومازلنا إلى اليوم فى حاجة إلى الاستزادة من الحضارة المادية، فإن هذه الحضارة ليست وقفًا على أمة دون أخرى، ومن حق البشر أن ينعموا بها جميعًا».

«لكن الأمر مختلف فى الناحية المعنوية من الحضارة، فلمصر تقاليدها وتراثها القديم، الأمة لا تعيش بغير ماض يذكرها بما كان لها من عز ومجد، ويرسم لها مثلها، ويذكى فى قلوب أبنائها جذوة التوثب والنهوض».

«وإذا كانت مصر فى ماضيها البعيد، قد أفرطت فى الجمود، ثم هى فى ماضيها القريب قد أمعنت فى التجديد، فإنها فى الوقت الحاضر تتأرجح بين القديم والجديد».

«وإذا كانت المسألة الكبرى فى عهد إسماعيل هى كيف تنهل مصر من الحضارة الغربية، وتعب أكبر جرعة منها، فإن المسألة الكبرى فى عهد فاروق هى: كيف توفق مصر بين القديم والحديث؟ وكيف تواصل السير فى نهضتها التجديدية دون هوادة ولا استرخاء؟ على أن تجعل من تراثها الماضى عاملاً قويًا من عوامل النهوض، فلا تفنى فى غيرها، ولا تتلاشى شخصيتها ومقوماتها الذاتية».

«هذه هى المسألة.. إلخ.»

نعم هذه هى المسألة التى يجب أن نعنى بحلها ودراستها، ووضعها موضع التنفيذ، ولقد كان سيرنا نحو الغرب أو اندفاعنا نحوه، بدءًا من عهد محمد على، كالقطار حين يقوم من المحطة، يبدأ فى السير البطىء ثم ينطلق، ويحطم كل شىء يعترض طريقه، ما لم يكن له فرامل، يستعملها السائق عند الحاجة. ولكن لم تكن هناك فرامل من دين أو وطنية صحيحة توجهها رؤية صحيحة وبصيرة بالأمور.

فقد بدأت المدارس التى أنشأها محمد على بداية متواضعة فى عددها، وفى تلامذتها، وحتمت ظروف البلاد التعليمية والاجتماعية، أن يقوم مدرسون من

الأزهر بالتدريس فيها أولاً، فينقلوا إليها ما درس من كتب صغيرة فى الأزهر. ويلقوا على جوها ظلهم الدينى.. وكان هذا ضروريًا، لأنه لم يكن فى مصر تعليم إلا فى الأزهر، يخرج مدرسين. ثم لما انطلق القطار فى السير، وجاء معلمون وضباط من الغرب، أو ممن تعلموا من الشرق فى جو الغرب، بدأ التخفيف من الماضى وظله، وأخذ الاتجاه إلى الاقتباس من الغرب ومحاكاته فى أنظمته فى مدارسه، بل فى حياته أخذ يسرع أكثر من الأول، حتى ألغى فى التعليم الابتدائى ما كان فيه من قبل من حفظ القرآن ومن النحو والصرف..

وترجمت كتب الأطفال الإنجليزية لتدرس فى مدارسنا هنا[١] وسميت المدارس بـ «المكتب المستجد».

وقد هدأت الحركة التعليمية فى السنين الأخيرة من حكم محمد على بعد معاهدة لندن ١٨٤٠ التى قضت على آماله فى التوسع، وحجمت جيشه، حتى لا يعود خطرًا على الغرب، فانحسر ظل التعليم عامة: التعليم العسكرى، وما يتبع الجيش من منشآت علمية واقتصادية وإدارية[٢].

وزاد التعليم ركودًا - كما عرفنا من قبل - فى عهدى عباس الأول وسعيد.. ولكنه انطلق فى كل ناحية، فى عهد إسماعيل من ١٨٦٣-١٨٧٩ م، وبكل قوة للاتجاه إلى الغرب.

ولو أن الذين قاموا على التعليم والإكثار من المدارس بمراحلها المتعددة، راعوا فى اندفاعهم نحو الغرب حضارتهم وثقافتهم الإسلامية، وماضيهم وتراثهم، لحرصوا - كما قلنا من قبل - على إقامة الجسور بين القديم والجديد، وعملوا على أن يقيموا صرح الجديد على أساس من قواعد القديم. ويعنوا بالتربية الدينية فى هذه المدارس، حتى يشب التلاميذ على ولائهم لدينهم، وتقديرهم لحضارتهم وثقافتهم منذ صغرهم وشبابهم..

---

(١) التعليم فى عهد محمد على ص ١٨٠، ٢٠٠ تأليف أحمد عزت عبد الكريم مصدر سبق ذكره.
(٢) ص ١٩٢ وما بعدها. المصدر السابق.

ولكن ماذا كنا ننتظر من رجال تربى أكثرهم فى الغرب، وساروا فى الزفة، وعلى رأسهم حاكمهم[١] نحو الغرب، وضاعت الأصوات والآراء الرشيدة فى زحمة الزفة وجلبتها ؟..

(١) ولد إسماعيل بالقاهرة ١٨٣٠ وبدأ تربيته الأولى بمصر ثم فى فرنسا، حيث أرسله محمد على مع باقى الأمراء، وتم علومه فى كلية «سنت سير» الحربية، وعاد سنة ١٨٤٩.. وتولى الحكم ١٨٦٣ بعد عمه سعيد الذى توفى ١٨ يناير ١٨٦٣ م من كتاب «تأريخ مصر السياسى» لمحمد رفعت. سبق ذكره..

obeikandl.com